دور التحليل الأسلوبي
في ترجيح آخر رسائل عبد الحميد الكاتب

Karim Farouk Ahmed ABDELDAİM (*)

دور التحليل الأسلوبي في ترجيح آخر رسائل عبد الحميد الكاتب

الملخص

يعتمد البحث على اختبار أدوات الدرس الأسلوبي عن طريق رصد أوجه التشابه بين رسالتين- اختلف في صحة نسبة إحداهما لعبد الحميد الكاتب, واختلف في زمنها إذا صحت نسبتها له، والأخرى منسوبة له ومحدَّدة الزمن-؛ وذلك بهدف الكشف عن مدى قدرة الدرس الأسلوبي على إثبات أو ترجيح صحَّة نسبة تلك الرسالة المختلف عليها لعبد الحميد الكاتب من ناحية, وقربها من حيث زمن كتابتها من رسالته الأخيرة بما يصنِّفها من آخر رسائله من ناحية أخرى.

الكلمات المفتاحية: تحليل، أسلوب، رسائل، ترجيح، عبد الحميد الكاتب.

Abdulhamîdu'l-Kâtib'in Son Risâlelerinde Üslûbî Analizin Etkisi

Öz

Bu araştırma, iki risale arasındaki benzer yönleri keşfetme yoluyla eserlerin aidiyetine tespiti denemektedir. Abdulhamîdu'l-Kâtib'e nisbeti ve kesin olan bir risale ile Abdulhamîdu'l-Kâtib'e nisbeti ve zamanı kesin olmayan hakkında ihtilaf edilmiş diğer bir risale mukayese edilecektir. İki risale arasındaki ortak noktalara ve aralarındaki zaman yakınlığına bakılarak, diğer risalenin de Abdulhamîdu'l-Kâtib'e ait olduğunu ilmî üsluplara dayanılarak ortaya konulacaktır.

Anahtar Kelimeler: *Abdulhamîdu'l-Kâtib, Risaleler, Tercih, Üslûb, Analiz.*

*) Yrd. Doç. Dr., Bozok Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Arap Dili ve Belagatı Ana Bilim Dalı (e-posta: karimel_kholy@yahoo.com)

The effect of the Style Analysis on the Last Risala of Abdulhamid el-Katib

Abstract

Our goal of this research to reveal the extent to which tools lesson stylistic by monitoring the similarities stylistic between two messages - different in the authenticity of one of Abdulhamid el-Katib, and differed in its time, if true, represented him and the other attributed to him and a specific time - on the evidence or likelihood of authenticity of the proportion of this disputed message to Abdulhamid elkatib of the hand, and the proximity of where the time of writing last message, including classified from the last of his messages on the other.

Keywords: *Style, Analysis, Risala, Weighting, Abdulhamid el-Katib.*

تمهيد:

من المعلوم أن لعبد الحميد بن يحيى الكاتب شهرة في الترسُّل حتَّى قيل: "**فُتِحت الرسائل بعبد الحميد وخُتِمت بابن العميد**" (الثعالبي، (1937)، 137/3), ومع هذا فإنَّ ما وصل إلينا من رسائل عبد الحميد الديوانية والإخوانية حتى وقت قريب من نهاية القرن الماضي من القلَّة بالمقارنة بغيره من الكتَّاب.

وقبل أن ينتهي القرن العشرون بعدَّة سنوات طالعنا جهد مشكور من الدكتور إحسان عباس بالكشف عن عديد من الرسائل التي خطَّها عبد الحميد الكاتب, وذلك عن طريق البحث في كتاب العطاء الجزيل للبلوي من ناحية, وإرجاع بعض الرسائل التي وردت في بطون الكتب دون الكشف عن صاحبها, أو نُسِبت خطأ لآخرين من ناحية أخرى.

فكان كتابه– عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقَّى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء– هو الحاوي لجميع ما وصل إلينا مما كتبه عبد الحميد الكاتب ويبلغ اثنتين وستين رسالة تختلف في الطول والقصر.

وما يهمُّنا من تلك الرسائل رسالتان: الأولى هي الرسالة الأخيرة التي كتبها عبد الحميد لأهله عند هروبه من العباسيين قبل مقتله, وهي رسالة لا خلاف في نسبتها إليه, ولا خلاف في أنها آخر ما كتب, وهي مما ذكره الجهشياري: "**كتب عبد الحميد إلى أهله وأقاربه عند هزيمة مروان في**

فلسطين, وهي آخر حرب ومواقعة كانت له وكانوا ينزلون بالقرب من الرقَّة بموضع يُعرَف بالحمراء؛ يعزِّيهم عن نفسه: أما بعد, فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ..." (الجهشياري (1938)، 46).

والرسالة الثانية هي إحدى الرسائل المكتشفة حديثا، وقد أوردها الدكتور إحسان عباس في كتابه المذكور آنفا، ورجَّح أنها لعبد الحميد الكاتب, وعزا زمن كتابتها بالمقولة النظرية إلى المرحلة الأخيرة التي كان فيها عبد الحميد كاتبا أو وزيرا للخليفة الأموي مروان بن محمد.

وعلَّق على هذه الرسالة بقوله: "**ورسالة أخرى إلى أخ له يغبطه على أنه رفض الوظيفة (رقم:10), وأكبر الظنّ أنها من رسائل المرحلة الثالثة؛ إذ فيها يمكن أن يكون عبد الحميد قد أحسَّ بالحمل الباهظ الذي قام به حين اختار السير في ركاب الدولة**" (إحسان عباس، (1988)، 69).

ومن يتأمَّل هذه الرسالة– المُختلَف عليها– يخرج بعدَّة ملاحظات أولية منها: أن هذه الرسالة تتحدَّث عن غربة عبد الحميد عن وطنه, ويصف فيها حاله من الحزن والشقاء البدني والنفسي والخطر الممزوج بالحنين إلى الوطن, وحال أخيه من السعادة والراحة البدنية والنفسية والأمان في ظلِّ الوطن.

ولمَّا أنعمنا النظر في هذه الرسالة تحرَّك لدينا ظنٌّ بصحَّة نسبة هذه الرسالة لعبد الحميد, ليس هذا فحسب بل إنَّ هذه الرسالة كُتِبت أثناء هروب الكاتب من العباسيين وفي فترة قريبة من رسالته الأخيرة التي أوردها الدكتور إحسان عباس ولا خلاف عليها كما تقدَّم.

ولمَّا شرعنا في دراستها ورصد ما بينها وبين رسالته الأخيرة من تشابه أسلوبي يميزهما معا عن بقية رسائل عبد الحميد– التي درسناها دراسة مفصلة تحت مظلَّة الدرس الأسلوبي منذ ما يقرب من عقد من الزمان[1]– تأكَّد لدينا ما ذهبنا إليه.

[1] انظر: كريم فاروق أحمد عبد الدايم، (2008).

وقبل أن نشرع في رصد أوجه التشابه بين الرسالتين علينا أن نذكِّر أنهما لا تندرجان تحت الرسائل الديوانية, فإحداهما وُجِّهت لأخ له, والأخرى وُجِّهت لأهله وهو أول تشابه بينهما.

وهدفنا من هذا البحث أن نكشف عن مدى قدرة أدوات الدرس الأسلوبي– الذي يجمع بين الدرس اللغوي والبلاغي والنقدي– عن طريق رصد أوجه التشابه الأسلوبي بين الرسالتين؛ على إثبات أو ترجيح صحَّة نسبة تلك الرسالة المُختلَف عليها لعبد الحميد الكاتب, وقربها من جهة زمن كتابتها من رسالته الأخيرة بما يصنِّفها من آخر رسائله. وقُسِّم البحث إلى:

تمهيد وخطَّة البحث، ثم خمسة عناصر:

- البنية التقابلية
- غموض المكان
- شقاء بدني ونفسي
- فرد في جماعة
- غربة بلا عودة

ثبت المصادر والمراجع

1- البنية التقابلية:

إن التقابل من الخواص الأسلوبية التي تكشف عن قدرة المؤلف في تطويع الأدوات اللغوية لتحمل تصوُّره للواقع, و"**تأتي التقابلات على مستويات متعدِّدة, حيث تتداخل الحدود بين المتقابلات أحيانا والمتخالفات أحيانا أخرى, وقد يأخذ التقابل شكلا تحوُّليا, وقد يصير إلى أشكال ثلاثية ورباعية, كما يأتي على شكل مواقف تحيل التقابل إلى صورة درامية, وهنا يصبح بناء كلِّيا يعكس إدراك الشاعر لحقائق عالمه**" (محمد عبد المطلب، (1995)، 148).

ويُعَدُّ التقابل من الظواهر التي يقف عندها المتلقي؛ ليستخلص دلالاتها؛ ليكون على قدر من الاتصال بالمؤلف فـ "**خاصية الأسلوب تتجسَّد فيها نتائج المقارنة وما تؤدِّي إليه من توافقات**

وتخالفات ذات دلالة معيَّنة عند القارئ، فإذا اطَّردت هذه الدلالات لدى مجموعة من القرَّاء في إعادة تكوينهم للنصِّ؛ فإنَّ الاحتمال الغالب حينئذ أن تكون تلك العناصر مقصودة بوعي من المؤلف" (صلاح فضل، (1998)، 233). كما له من التأثير ما يحدو المتلقي إلى التجاوب مع النص، فهو "**يؤثر تأثيرا قويا في السامع ويأخذ بمسامعه**". (أحمد إسماعيل، (2014)، 115).

وأول ما نرصده من تشابه بين الرسالتين ما لاحظناه من قيام الرسالتين على بنية تقابلية, يقابل عبد الحميد في الرسالة الأولى بين حال أخيه في الوطن, وبين حاله هو في الغربة.

ويقابل في الرسالة الثانية بين حاله قبل الهروب من العباسيين, وبين حاله بعد الهروب منهم, وينسب الحالين لفعل الدنيا به بوجهيها الحسن وغير الحسن.

فيبدأ رسالته الأولى بوصف حال أخيه في ظلِّ الوطن, ويسترسل في وصف الأمان والراحة والسعادة ورؤية الأقارب والأحباب فيقول: "**أما بعد, فإن من صغرت رغبته, وقصرت حاجته؛ أراح بدنه ولازم أحبابه, وصان وجهه, وسلم له دينه, وأكرم عن الدنايا نفسه.**

وقد أصبحت– عندي– ذا غبطة باقتصارك على القليل, ورضاك به, وإقامتك عليه بقطعك حبال الأمل وردِّك نفسك عن جماحها إذا نازعتك مُتطلِّعة إلى شيء من الدنيا حتى اعتلقت خفض الدعة والوداعة, وتمدَّدت في فسح ساحات منازل الراحة, واستقرعت أبواب السلامة, وتمهَّدت وثارة الأمن, وتوسَّطت رباع العزِّ, واستخفضت بذلك معاشك؛ فصار قليل ما أنت فيه كثيرا؛ لمساعدة السلامة إياك, لا تدخلك مشقَّة البعد ولا ذلَّة السفر, ولا كآبة الغربة, ولا اغتراب الدار, ولا سوء تجهُّم الأذن, ولا ضجر الطلب, ولا تعب شره النفس.

إن صحَّ بدنك؛ طاب لك رغد عيشك بمعاينة الزوج السارّ لك قربها, والولد المضموم إليك شخصه, والمقام منك في منشئك ومنبتك, وإن عرض لك عارض من سقم؛ تكنَّفك الكفاة, وأحدق بك الحفدة, وساعدك اللطف من أهل التعطُّف عليك بالرقَّة المتحرِّكة, يعودونك وينتابونك في الليل والنهار" (إحسان عباس، (1988)، 203).

ثم يفاجئنا عبد الحميد بالانتقال من حال أخيه إلى حاله هو بقوله: "**إذ الضيعة لمن اغترب, والغربة لمن اشتملت عليه الهموم, وتشعَّبته الرغبة؛ ففارق الأحبَّة, واستخلف منهم الغربة, وكادح الأسفار, وأتعب البدن, وأقلق الشخص, ونابذ الدعة, واعتاض النصب**" (إحسان عباس، (1988)، 203).

وقد أقام عبد الحميد في الشاهدين السابقين من الرسالة الأولى بنيته التقابلية بأكثر من مظهر:

الأول: الاسترسال في وصف حال أخيه والامتداد بصورته وهو يتنعَّم في ظلِّ الوطن مع تفصيل هذا التنعُّم, وقد ساعد الاسترسال الكاتب في تكرار النفي: (لا تدخلك مشقة البعد, ولا ذلة السفر, ولا كآبة الغربة, ولا اغتراب الدار, ولا سوء تجهم الأذن, ولا ضجر الطلب, ولا تعب شره النفس), وذلك التكرار يؤكِّد[1] انتفاء وجود ما يعكِّر صفو هذا النعيم, كما ساعده في تكرار أسلوب الشرط الذي صاغ به الكاتب بنية تقابلية أخرى: (إن صح بدنك طاب لك رغد عيشك بمعاينة الزوج السار لك قربها, والولد المضموم إليك شخصه, والمقام منك في منشئك ومنبتك, وإن عرض لك عارض من سقم تكنفك الكفاة, وأحدق بك الحفدة), وتلك البنية التقابلية[2] تؤكِّد تنعُّم أخيه في الوطن في كلِّ الأحوال سواء في الصحَّة أو في المرض.

وقد ألحَّ الكاتب على التقابل ليس في تقابل أسلوبَيّ الشرط فحسب, بل بالتقابل الصوتي[3] بين جزئي الشرط في الأسلوبين المتقابلين, ومن ذلك: التقابل بين العين المجهورة المتكرِّرة في فعل الشرط وفاعله (عرض عارض), وبين الحاء المهموسة المتكرِّرة في المعطوف على جواب الشرط وفاعله (أحدق الحفدة), مع تقابل الضاد المُطبقة والدال المُرقَّقة فيهما, والتقابل الصوتي بين الصاد الرخوة والطاء الشديدة في فعل الشرط (صح) والجواب (طاب), مع التقابل الصوتي بين العين المجهورة والحاء المهموسة في فعل الشرط الأول (صح), وفعل الشرط الثاني (عرض), علاوة على التقابل الصوتي بين

[1] انظر دلالة التكرار على التأكيد والتقرير: الزركشي، (1957)، 8/3 وما بعدها.

[2] انظر أثر المقابلة في ثبوت الدلالة وتأكيدها: عفت الشرقاوي، (1981)، 214.

[3] المقصود بالتقابل الصوتي العلاقة القائمة بين صوتين يتحدان في المخرج أو يتقاربان فيه، مع التشابه في الصفات عدا صفة واحدة، ويطلق علماء اللغة على تلك الأصوات النظائر. انظر على سبيل المثال: إبراهيم أنيس، (1999)، 23- 25.

الضاد الشديدة المجهورة والصاد[1] الرخوة المهموسة[2]. وبالجملة فقد جاء الاسترسال في وصف حال أخيه مقابلا لاقتضاب وصف حاله هو بعض الشيء.

الثاني: من حركة الضمائر في الشاهدين, ففي الشاهد الأول من الرسالة يظهر أخوه بصيغة الخطاب المُعتادة له باعتباره متلقي الرسالة: (أصبحت, اقتصارك, رضاك, إقامتك, بقطعك, ردك, نازعتك, اعتلقت, تمددت, استقرعت, توسطت, استخفضت, معاشك, أنت, إياك, تدخلك, بدنك, عيشك, لك, إليك, منك, منشئك, منبتك, تكنفك, بك, ساعدك, عليك, يعودونك, ينتابونك).

وفي المقابل يختفي عبد الحميد وراء صيغة الغائب: (لمن اغترب, لمن اشتملت عليه, تشعبته, فارق, استخلف, كادح, أتعب, أقلق, نابذ, اعتاض).

وهذه الضمائر تُظهر لنا جدلية الظهور والخفاء التي تقوّي البنية التقابلية للرسالة, كما تظهر مدى الانكسار النفسي والندم على السير في ركاب الدولة- بتولّيه منصب وزير أو كاتب الخليفة الأموي الذي انتهى بهروبه- وتوحي بتمنّي عبد الحميد أنه لم يكن في هذه الحال, كما توحي للمتلقي بنعمة أخرى يستظلُّ بها في الوطن ألا وهي الظهور على الملأ في مقابل عبد الحميد الذي يختفي عنهم؛ لأنه مطلوب من العباسيين ليقتلوه.

الثالث: يتجلّى في طريقة استخدام الكاتب للمعجم اللغوي في الشاهدين, ففي الجزء الأول الخاص بوصف حال أخيه نجد ألفاظا تجسّد النعيم والأمن مثل: (الأمل, الدعة, الوداعة, فسح ساحات منازل الراحة, أبواب السلامة, وثارة الأمن, رباع العز), مع نفي السلبيات التي قد تؤثّر في هذا النعيم من تكرار النفي في هذا الجزء من الرسالة, ومن الملاحظ أن انتشار المدِّ بالألف قد أسهم

[1] انظر صفات العين والحاء والضاد والدال والصاد والطاء على الترتيب: إبراهيم أنيس، (1999)، 77، 77، 46، 46، 68، 57.
[2] انظر المقصود بالجهر والهمس، والشدة والرخاوة: إبراهيم أنيس، (1999)، 21، 23.

في صبغ تلك الألفاظ بالسعة والامتداد[1], مما يوحي بسعة النعيم وامتداده في ظلِّ الوطن, وهو ما افتقد إليه عبد الحميد.

في مقابل الألفاظ التي تجسِّد الشقاء في الجزء الثاني من الرسالة الخاص بحال الكاتب, مثل: (الضيعة, الهموم, الرغبة, الغربة, الأسفار, البدن, النصب), ومن الملاحظ قلة المد بالألف في هذه الألفاظ؛ ليقوِّي الكاتب البنية التقابلية بين حاله وحال متلقي الرسالة, كما توحي بسرعة التنقُّل في حوادث الشقاء المتتابِعة, وتلك السرعة ربما تكشف عن شعور الكاتب بسرعة الأجل المحتوم من لحاق العباسيين به وقتله.

أما الأفعال في الجزء الأول من الرسالة الخاص بوصف حال أخيه, فمنها: (اعتلقت, تمددت, استقرعت, تمهدت, توسطت, استخفضت, ساعدك, يعودونك, ينتابونك), وهي توحي بمطاوعة الطبيعة لأخيه والاستجابة لما يريد.

في مقابل الأفعال: (اغترب, اشتملت, تشعبته, فارق, استخلف, كادح, أتعب, أقلق, نابذ, اعتاض), وتوحي بالشقاء والتعب البدني والنفسي.

وفي الرسالة الثانية يقيم الكاتب بنيته التقابلية بين حاليه- والنقطة الفاصلة بينهما لحظة الهروب من العباسيين- الأول: قبل الهروب من العباسيين عندما كان كاتب الدولة الأول ووزيرها مع وصف أوجه النعيم التي عاشها في ظلِّ الوطن من أمان وراحة وسُلطة.

والثاني: حاله بعد الهروب من العباسيين بعد هزيمة مروان مع وصف ما عاناه من شقاء بدني ونفسي وخوف ومذلَّة وأخطار في الغربة.

يبدأ الكاتب رسالته بصيغة الغائب كما بدأ رسالته الأولى بقوله: **"أما بعد, فإنَّ الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور, وجعل فيها أقساما مختلفة بين أهلها.**

---

[1] ذلك من طول المدة الزمنية لنطق المد بالألف؛ إذ يقدره علماء الأصوات الأطول زمنيا، انظر: إبراهيم أنيس، (1999)، ص127 وما بعدها. انظر إيحاء الأصوات بدلالة نابعة من صفاتها: إبراهيم أنيس، (2004)، ص65. وانظر تفصيل ذلك مع التطبيق: محمد الصالح الضالع، (2002)، ص25 وما بعدها.

فمن درَّت له بحلاوتها وساعده الحظُّ فيها؛ سكن إليها, ورضي بها, وأقام عليها.

ومن قرصته بأظفارها, وعضَّته بأنيابها, وتوطَّأته بثقلها؛ قلاها نافرا عنها, وذمَّها ساخطا عليها, وشكاها مستزيدا منها" (إحسان عباس، (1988)، 278).

يقابل الكاتب في بدء رسالته في الشاهد السابق بين وجهَي الدنيا التي صوَّرها بناقة تدرُّ اللبن وتعطي كلَّ شيء يحتاجه, ويرصد ردَّ الفعل تجاه هذا الوجه من الرضا بما منحته؛ ليعبِّر بذلك عن راحته في الوطن قبل الهروب.

وصوَّر في الوجه الآخر الدنيا بناقة أيضا, ولكن تقرص وتعضُّ وتدوس على الإنسان, ويرصد فيها ردَّ الفعل من الذمِّ والنفور والشكوى منها.

وقد أكَّد الكاتب هذا التقابل لوجهَي الدنيا عن طريق التشابه التركيبي, وله عدَّة مظاهر:

الأول: صياغة الحالين في قالب الشرط الذي عمَّق جدلية التشابه والتخالف بين وجهَي الدنيا, فالتشابه التركيبي لأسلوبي الشرط ينطوي في حقيقته على التقابل بين الأسلوبين, وهي الطريقة ذاتها التي استعملها الكاتب في الرسالة الأولى من استخدام أسلوبَي شرط متقابلين؛ ليعمِّق البنية التقابلية للرسالة.

هذا وقد عمَّق الكاتب بنيته التقابلية ببُنى صغرى تضمَّنها أسلوبا الشرط, وتمثَّلت هذه البنى في التقابل الصوتي بين الألفاظ فيهما, فنجد التقابل الصوتي بين الضاد المجهورة والطاء المهموسة في: (عضته, توطأته), والتقابل الصوتي بين الصاد الرخوة والطاء الشديدة في: (قرصته, توطأته), والتقابل الصوتي بين القاف الشديدة والخاء الرخوة في: (قلاها, ساخطا), والتقابل الصوتي بين الظاء الرخوة والضاد الشديدة في: (قرصته بأظفارها, عضته بأنيابها), مع تقابل بين الفاء الرخوة والباء الشديدة من: (أظفارها, أنيابها), وكل ذلك مع انتشار الأصوات المُطبقة[1].

وهو تكثيف للمتقابلات صوتيا يعمِّق بنية الرسالة التقابلية.

[1] انظر صفات القاف والخاء والظاء والفاء والباء على الترتيب: إبراهيم أنيس، (1999)، ص73، 76، 45، 44، 43.

الثاني: قيام الحالين على الفعل الماضي ذي الدلالة على الثبات وتحقق الحدوث[1] الذي يضفي على رؤية الكاتب للدنيا صدقا يقنع المتلقي بقيامها على المتناقضات.

الثالث: قيام الصورة على الاستعارة من المستعار منه ذاته في الحالين, وهي الناقة التي استثمر الكاتب غموض أحوالها واحتوائها على صفات متناقضة؛ ليخلعها على الدنيا.

الرابع: كيفية تقسيم الكاتب للفواصل في أسلوبَي الشرط الذي أدَّى فيه العطف دورا رئيسا ليتساوى عدد الجمل المعطوفة على جواب الشرط الأول مع عدد الجمل المعطوفة على جواب الشرط الثاني:

- "سكن إليها, ورضي بها, وأقام عليها".

- "قلاها نافرا عنها, وذمها ساخطا عليها, وشكاها مستزيدا منها".

وعقب افتتاح عبد الحميد رسالتيه ببنية تقابلية- كما مر بنا- استعمل فيهما صيغة الغائب لنفسه في الرسالة الأولى, ولحاله من الدنيا في الرسالة الثانية؛ ينتقل عبد الحميد إلى بنية تقابلية أخرى يلتفت في الرسالة الأولى من صيغة الغائب إلى صيغة المتكلِّمين في وصف حاله هو مع بقاء صيغة المخاطب لأخيه.

وفي الرسالة الثانية يلتفت من صيغة الغائب أيضا إلى صيغة المتكلِّمين.

يقول في الرسالة الأولى في وصف أخيه: "**وإنَّك بحيث انعطف عليك أنسة القريب, وراحة السكون إلى الطمأنينة في دار الخفض ومنزل القرار**" (إحسان عباس، (1988)، 203).

ثم يعاود الانتقال لوصف حاله بقوله: "**ونحن في تعب الدنيا تُوجِف بنا مطايا الشقاء, نباكر دلجها بغمِّ النصب, ومبهظ التعب, واحتمال الجفوة, وذلِّ التجهُّم, فالأبدان خاشعة لطول الدأب, تتوقَّل في وعور المسالك, وتتدرَّع هول تلك المخاوف حتى تخيِّم بنا الأسفار**

[1] تلك الدلالة مفهومة من قول الزركشي: "ولهذا لا يجوز تأكيد الماضي ولا الحاضر لئلا يلزم تحصيل الحاصل وإنما يؤكد المستقبل"، انظر: الزركشي، (1957)، 384/2.

على حلول كلِّ دار بكربة الغربة, وخشونة الجفوة, وجوار المتنكِّرين, ووحشة من نصير إليه, مع تجبُّر من نعامل باستطالته علينا, فإنْ نِلنا منهم حظًّا وأصبنا من دنياهم حطاما؛ نكَّره طول السفر المملُّ لنا من عقد الرحال وحلِّها إلى أوان الأَوبة إلى الأهل, ثمَّ لعلَّ ذلك القليل أن تستنفذه نوائب الدهور, ويبتلعه قضاء الحقوق بالتقديم قبل التدبير, ثم تستأنفه مفاوز الطلب بتحريك المضطرب, فإذا الأسفار قد تجدَّدت بتكاليف المئونات, موجِفين إلى نائي المحلِّ في دار الذلَّة, قد استعجمت علينا أخبار الأحباب, وفقدنا الأقارب والأصحاب, فالغموم مُشتبِكة, والنفوس بأمور شتّى مَعنيَّة" (إحسان عباس، (1988)، 203).

وقد عضَّد الكاتب في الشاهدين السابقين من الرسالة الأولى بنيته التقابلية بعدَّة مظاهر:

الأول: الاسترسال, ولكن هنا لحال عبد الحميد مع اختصار وصف حال أخيه, وقد ساعد هذا الاسترسال في الامتداد بالوصف الذي تضمَّن كثيرا من الصور الجزئية التي تجتمع في صورة كلِّية تعكس شقاء الكاتب ومعاناته من الغربة, وقد أُقيمت على المستعار منه ذاته, الناقة كما قامت عليها الصورة الكلية في الرسالة الثانية: (مطايا الشقاء, تتوقل, تتدرع, تخيم, عقد الرحال وحلها).

وقد ساعد هذا الاسترسال ليس في الامتداد بالصورة فحسب, بل باحتواء بعض الظواهر التركيبية التي تقوّي البنية التقابلية, ومنها: استعمال الفعل المضارع الدالِّ على التجدُّد والاستمرار[1], وجاء تكراره؛ ليلحَّ به الكاتب على تجدُّد الأحوال من السيِّء إلى الأسوأ مع دوام التعب لدوام التنقُّل والسفر من مكان إلى آخر: (توجف, نباكر, تتوقل, تتدرع, تخيم, نصير, تستنفده, يبتلعه, تستأنفه), في مقابل استعمال الفعل الماضي الدالِّ على التحقُّق والمطاوعة[2] في الشاهد الأول الذي وهب الدلالة ثباتا يؤكِّد الراحة والأمان لأخيه, ومطاوعة الدنيا له في ظلِّ الوطن: (انعطف).

وهذا الاستعمال لصيغ المضارع في مقابل صيغة الماضي أقام جدلية الحركة والسكون, وقد عمَّق من هذه الجدلية بين حالي الكاتب وأخيه المتقابلَين ما صرَّح به الكاتب من ألفاظ دالَّة على

[1] انظر دلالة المضارع على الاستمرار: الزركشي، (1957)، 3/ 21.

[2] المطاوعة بمعنى قبول الأثر، انظر دلالة صيغة انفعل على المطاوعة: عبد اللطيف الخطيب، (2003)، 331.

الحركة مصاحبة لصيغة المضارع: (لطول الدأب, لطول السفر, عقد الرحال وحلها), لحاله هو, وألفاظ دالَّة على الثبات والسكون مصاحبة لصيغة الماضي: (راحة السكون, منزل القرار, دار الخفض), لحال أخيه.

الثاني: كما أقام الكاتب بنيته التقابلية في رسالته الثانية على بُنى تقابلية صغرى وجدنا التقابل الصوتي بين القاف الشديدة والخاء الرخوة في: (تتوقل, تخيم), وهما متقابلان في الدلالة على الحركة والسكون أيضا, والتقابل الصوتي بين الكاف الشديدة والشين الرخوة في: (كربة, خشونة), والتقابل الصوتي بين الباء الشديدة والفاء الرخوة في: (الغربة, الجفوة), والتقابل الصوتي بين الدال والقاف الشديدتين وبين الزاي والخاء الرخوتين على الترتيب[1] في: (دار الخفض, منزل القرار).

الثالث: تكرار الكاتب للكلمات التي تحتوي على صوت الجيم ذي الدلالة على الشدَّة[2] الذي يعكس شدَّة ما اعتمل داخل عبد الحميد من شعور تجاه الغربة والهروب: (توجف, دلجها, الجفوة, التجهم, جوار, تجبر, تجددت, استعجمت, موجفين), في مقابل انعدامه تماما في الشاهد الأول الذي يصف حال أخيه.

الرابع: حركة الضمائر, ولحركة الضمائر في هذين الشاهدين ما يعضِّد بنية الرسالة التقابلية ففي حين- كما أشرنا سابقا- بقي الخطاب للمتلقي بصيغته ذاتها: (إنك, عليك), نجد أنه قد تغيَّر من صيغة المفرد الغائب لعبد الحميد بالالتفات إلى صيغة المتكلِّمين: (بنا, نباكر, نصير, نعامل, علينا, نلنا, لنا, موجفين, فقدنا).

ونرى في ثبات ضمائر المتلقي وتغيُّر ضمائر الكاتب بنية تقابلية أخرى تقوّي تقابل الحالين في الحركة والثبات.

---

[1] انظر صفات الكاف والشين والزاي على الترتيب: إبراهيم أنيس، (1999)، ص73، 68، 67.

[2] انظر صفات الجيم الفصيحة: إبراهيم أنيس، (1999)، ص68.

الخامس: عضَّد عبد الحميد البنية التقابلية في رسالته بالمتقابلات دلاليا في الشاهدين السابقين, فنجد في الشاهد الأول: (انعطف, أنسة, راحة, السكون, الطمأنينة, دار الخفض), وتقابل في الشاهد الثاني على الترتيب: (تجبر وجفوة, وحشة, النصب والتعب, الدأب, المخاوف, دار الذلة).

وبالكيفية ذاتها يعاود عبد الحميد بنيته التقابلية في الرسالة الثانية مع الالتفات إلى صيغة المتكلِّمين أيضا- كما أوضحنا سابقا- يقول عبد الحميد: "**وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها, وأرضعتنا من درِّها أفاويق استحلیناها, ثم شمست منا نافرة, وأعرضت عنا متنكِّرة, ورمحتنا جامحة؛ فملح عذبها, وأمرَّ حلوها, وخشن ليِّنها, فمرَّقتنا عن الأوطان, وقطَّعتنا عن الأخوان, فدارنا نازحة, وطيرنا بارحة, قد أخذت كلَّ ما أعطت, وتباعدت مثلما تقرَّبت, وأعقبت بالراحة نصبا, وبالجذل همًّا, وبالأمن خوفا, وبالعزِّ ذلًّا, وبالجدَّة حاجة, وبالسرَّاء ضرَّاء, وبالحياة موتا, لا ترحم من استرحمها, سالكة بنا سبيل من لا أَوْبة له, منفيِّين عن الأولياء, مقطوعين عن الأحبَّاء**" (إحسان عباس، (1988)، 279).

وقد أكَّد الكاتب بنيته التقابلية بعدَّة مظاهر منها: الاسترسال في وصف الوجه غير الحسن للدنيا الذي عبَّر به عن حاله في الغربة كما فعل في رسالته الأولى, وقد تضمَّن هذا الاسترسال بنى تقابلية صغرى حشد فيها عبد الحميد عديدا من المتقابلات المتجاورة: (أخذت وأعطت, تباعدت وتقربت, الراحة ونصبا, الجذل وهما, الأمن وخوفا, العز وذلا, الجدة وحاجة, السراء وضراء, الحياة وموتا, ملح وعذبها, أمر وحلوها, خشن ولينها), مع التقابل في التعريف والتنكير في غالب المتقابلات الذي يعمِّق البنية التقابلية بين الحالين قبل الهروب وبعده, ويوحي استخدام التعريف في حاله قبل الهروب, والتنكير في حاله بعد الهروب في بنية متقابلة إلى جدلية المعروف والمجهول, فتنعُّمه في ظلِّ الوطن معروف للجميع ومشهود له وهو يعلمه جيِّدا, أما مصيره بعد الهروب فمجهول لا يعلمه إلَّا الله, يجهل فيه الكاتب موعده المنتظر على الرغم من تنقُّله من مكان لمكان مبتعدا عن العباسيين.

ومن تلك البنى التقابل الصوتي بين الحاء المهموسة- فضلا عن تكرارها- والعين المجهورة في: (ملح, عذب).

ومنها أيضا: استعمال الكاتب للحركات الطويلة لا سيما الألف التي شاعت بعد الفعل الناقص: (كانت) المستغرق في المضي في حال تنعُّم الكاتب في ظلِّ الوطن والوزارة, وتوحي دلالة هذا الفعل المستغرق في المضي كأن النعيم كان منذ وقت طويل بطول مدَّة الشقاء- على اقتضابها في الحقيقة- وذلك نتيجة لحال الهروب والترقُّب, وقد عضَّدت الحركات الطويلة لا سيما الألف من الإيحاء بطول تلك الفترة التي تنعَّم فيها الكاتب قبل الهروب.

وفي المقابل نجد قلة الحركات الطويلة بعد (شمست) التي كانت بداية تقلُّب الدنيا بعبد الحميد, وجسَّدت حاله من الشقاء بعد الهروب.

وقد أكَّدت هذه البنى التقابلية الصغرى الجوَّ النفسي من الحزن والكآبة والخوف والترقُّب والشقاء البدني مع اليأس من النجاة.

وفي المجمل جاء هذا الاسترسال مقابلا لاقتضاب وصف الوجه الحسن للدنيا الذي يعبِّر عن راحة الكاتب وسعادته قبل الهروب أو الاغتراب الدائم.

وقبل أن يختتم عبد الحميد رسالتيه يعاود بنيته التقابلية, فيبدأ في ختام الرسالة الأولى بجملة اسمية دالَّة على الحال[1]؛ ليؤكِّد راحة أخيه في ظل الوطن: **"وأنت مقيم بدار أمنك, قد أظلَّك السرور, وحالفك الأمل وطاب لك المقام, وأمنت ترقيع الرحل, متصبِّحا بأحبابك, يتعطَّف عليك روح الرخاء, تحاول ما أنت فيه وكثيره بقصير خطوة, إن مشيت رقَّة وجهك ناضر لونها, وأوصالك مستريحة أطرافها, أفرخ روعك, وأمن سربك, وامتلأت ممن تحبُّ عينك, وساعدك قرب أترابك الذين متاوق نفسك إليهم, فهنَّأك الله النعمة, ووهبها لك, وزادك إليها من تولَّاها منك, سائقا لها إليك, فاقتصر على ما قربت منك جدَّته, فلعلَّ طول ترحالنا وتنقُّلنا في البلاد أن يجرَّ إلى ما فيه بعض الحظِّ لك, فتجتمع لك مناوئ نفسك, ولا تنس الدعاء لنا ولك في تارات الليل والنهار, فإن العواري من المنعم مبلَّغة دولها بين الطالبين لها والقالين عنها, فقد**

[1] التأكيد من دلالة الجملة الاسمية على الاستقرار والثبوت ودلالة الحال على الثبات، انظر دلالة الجملة الاسمية على الاستقرار والثبوت: الزركشي، (1957)،66/4. وانظر دلالة الحال على الثبات: عباس حسن، (1984)، 366/2.

استطلعت عقال الراحة, وجلس بك التوكُّل عن نصب بدنك, وإنَّك عندنا مغبوط" (إحسان عباس، (1988)، 204) .

ثم ينتقل إلى حاله هو ويختم رسالته بقوله: "**إذ نحن على أنفسنا أهل إزراء في طول التطواف في مهاوي الفيافي وذرى قلل الجبال, بارك الله لك فيما أصارك إليه, ولنا فيما اختار لنا مما سبق فيه حتمه, ومضى فيه علمه, وحسبنا الله ونعم الوكيل, والسلام**" (إحسان عباس، (1988)، 204) .

ومن الملاحظ أن الكاتب قد عاود بنيته التقابلية ومعها الاسترسال في وصف حال أخيه في الشاهد الأول كما فعل بدء رسالته في مقابل اقتضاب حاله هو, وكما فعل أيضا في الرسالة الثانية.

وقد امتد الكاتب بصورة أخيه عن طريق الصور الجزئية التي تميَّزت بالسرعة لإطلاق الاستعارات[1] فيها: (مقيم بدار أمنك, أظلك السرور, حالفك الأمل, طاب المقام, أمنت ترقيع الرحل, يتعطف روح الرخاء, أفرخ روعك, أمن سربك, امتلأت عينك, ساعدك قرب أترابك, سائقا لها إليك).

وحقَّق الكاتب امتدادا مماثلا في وصف حاله, ولكن الامتداد هنا ليس بالاسترسال في الوصف أو الصور فحسب, بل بأصوات المدِّ التي توحي بامتداد السفر والهروب: (إذ نحن على أنفسنا أهل إزراء في طول التطواف في مهاوي الفيافي وذرى قلل الجبال), وهو الأسلوب ذاته الذي اتَّبعه في الشاهد السابق من الرسالة الثانية.

إنَّ قيام هذه الرسالة على التقابل بين حالي الكاتب والمتلقي يقوّي لدينا الاعتقاد بأنَّ وصف الحالين يعكس حال عبد الحميد قبل الهروب وبعده, وليس حال أخيه, بمعنى أن وصف الكاتب لحاله يؤكِّد الشقاء النفسي والبدني من الاغتراب الدائم الذي لا يعلم نهايته, ووصفه لحال أخيه يكمل هذا

[1] انظر أقسام الاستعارة باعتبار الخارج: عبد المتعال الصعيدي، (1999)، 120/3. والسرعة هنا من عدم إيراد ما يلائم المستعار منه أو ما يلائم المستعار له بما يشبه الاختصار.

الشقاء؛ إذ يكشف لنا عمَّا حُرِم منه الكاتب من الراحة والأمان وما ينشده لترجع حاله إلى سابق عهدها قبل الاغتراب الذي نعتبره هروبا من العباسيين.

أو بمعنى آخر إن امتداد الكاتب في وصف حال الراحة والأمان لأخيه يأتي باعتباره وصفا لما يتمنَّاه لنفسه, أو وصفا لما كان فيه, وهو ما قامت عليه الرسالة الثانية تماما.

وفي الرسالة الثانية يعاود الكاتب أيضا بنيته التقابلية قبل أن يختتم رسالته إلى أهله, وتضمَّن بدء الخاتمة جملة اسمية أيضا دالة على الحال تؤكِّد زيادة المسافة بينه وبينهم في قوله: **"وكتبت إليكم والأيام تزيدنا منكم بعدا, وإليكم صبابة ووجدا, فإنْ تتم البلية إلى أقصى مدَّتها؛ يكن آخر العهد بكم وبنا, وإنْ يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم؛ نرجع إليكم بذلِّ الإسار والصغار, والذلُّ شرُّ دار وألأم جار, يائسين من روح الطمع وفسحة الرجاء.**

نسأل الذي يعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة في دار آمنة تجمع سلامة الأديان والأبدان, فإنه ربُّ العالمين, وأرحم الراحمين" (إحسان عباس، (1988)، 279).

وقد عاود الكاتب استعمال أسلوب الشرط ليعبِّر به عن تقابل المصير, فإمَّا الموت: (إن تتم البلية), وإمَّا الحياة تحت ذلِّ الأسر: (وإن يلحقنا ظفر), وقد رفض الكاتب المصير الثاني بموقفه من ذلِّ الإسار, ونفي أي مصير ثالث: (يائسين).

إنَّ قيام أسلوبَي الشرط على جدلية الموت والحياة تعمِّق من البنية التقابلية التي أنشأ بها رسالته, ولكنَّ الكاتب قد حسم تلك الجدلية مسبقا بترجيح الموت عندما عبَّر عن تبدُّل الدنيا وتقلُّبها بعدَّة متقابلات ذُكِرت في الشاهد الأول, وكان آخرها: (بالحياة موتا). ومن ثم يكشف لنا هذا الحسم المسبق عن سيطرة فكرة الموت على ذهن عبد الحميد, وما يستتبعه من كآبة وضيق.

2- غموض المكان

من أوجه التشابه بين الرسالتين عدم ذكر مكان إقامة الكاتب, بل تميَّزت الأماكن فيهما بالإبهام, وكأنَّ الكاتب يحافظ على سرِّية مكانه حتى لا يعلم ملاحقوه بمكانه فيقتلوه, فلنتأمَّل الألفاظ الدالَّة على الأماكن التي ذُكِرت في رسالته الأولى: (ساحات منازل, أبواب, رباع, البعد, السفر, الغربة, الدار, الأسفار, دار الخفض, منزل القرار, وعور المسالك, كل دار بكربة الغربة, دار الذلة, بدار أمنك, تنقلنا في البلاد, مهاوي الفيافي, ذرى قلل الجبال, نائي المحل, دار الذلة). وكلُّ هذه الألفاظ لا تدلُّ على مكان محدَّد أقام فيه عبد الحميد, فضلا عن دلالة مكان المتلقِّي, وهو الوطن لأنه لم يغادره.

ولنتأمَّل الألفاظ الدالَّة على الأماكن التي ذُكِرت في الرسالة الثانية: (الأوطان, دارنا نازحة, سالكة بنا سبيل من لا أوبة له, الأيام تزيدنا منكم بعدا, شر دار, دار آمنة), ولا تحدِّد مكان عبد الحميد أيضا.

ومن اللافت للنظر أن المكان في رسالتيه يتميَّز بصفات محدَّدة- علاوة على غموضه-, ففي رسالته الأولى يتميَّز المكان بصعوبة الاجتياز أو الملاحقة: (وعور المسالك, مهاوي الفيافي, ذرى قلل الجبال), وقد تكون هذه الصفات جزءا من خطَّة الهروب؛ إذ لا يكون الكاتب قد اجتاز هذه الأماكن بالفعل, بل ربَّما ذكر ذلك ليُوهم العباسيين أنَّه في أماكن حصينة وبعيدة عنهم يصعب عليهم الوصول إليها حتى ييأسوا من ملاحقته ويعيش في أمان؛ إذ من السهل على العباسيين اعتراض هذه الرسالة قبل وصولها لأخيه, أو حتى بعد وصولها, ولا يعقل أن عبد الحميد- وهو كاتب الدولة ووزيرها وله رسائل ديوانية تشهد له بالخبرة العسكرية- لم يحتسب ذلك في ذهنه عند كتابة الرسالة.

والصفة الأخرى للمكان في هذه الرسالة أيضا البعد عن المكان الذي يسبقه؛ فشروط المكان الذي ينتقل إليه الكاتب هو البعد فحسب, ويظهر ذلك من: (موجفين إلى نائي المحل).

أما في رسالته الثانية فالمكان يتَّصف بالبعد الدائم- فضلا عن غموضه كما تقدم- وذلك من: (والأيام تزيدنا منكم بعدا, سالكة بنا سبيل من لا أوبة له).

ويظهر منهما أن عبد الحميد يزداد في البعد عن الوطن على مدار الأيام, وأنه لا يمكث في مكان واحد, بل على تنقُّل دائم حتى لا يلحق به العباسيون, ويؤكِّد ذلك صيغة اسم الفاعل: (سالكة), الدالة على تجدد التنقل واستمراره[1], وصيغة المضارع: (تزيدنا), الموحي بدوام بعد المكان مع دوام الزمان.

وعلى الرغم من غموض المكان في الرسالتين واتِّصافه بالبعد نجد أن الكاتب في رسالة إخوانية أخرى قد صرَّح بالمكان, وقد أرسلها إلى صديق له طلب منه إبداء رأيه في الإخاء, وترجع هذه الرسالة تاريخيا إلى مروان بن محمد عندما كان واليا على أرمينية, وعبد الحميد كاتبه الأول, وهذه الفترة تميَّزت بحروب مروان الكثيرة, قال فيها الكاتب بعد وصف الإخاء معتذرا عن الإطالة في وصفه: **"وافاني كتابك بما سألت من ذلك, وعقلي محصور, ورأيي منقسم, وذهني فيما يتأهَّب به الأمير لقتال .. خرز الترك, واختلاف رسله إلى جبال اللان والطبران وما والاهما بنوافذ أمره ومخارج رأيه, فأنا مصيخ السمع للفظه"** (إحسان عباس، (1988)، 278).

فالأماكن في هذه الرسالة صريحة: (خزر الترك, جبال اللان والطبران وما والاهما), فضلا عن معرفة المتلقي بمكان إقامة عبد الحميد لأنه أرسل إليه رسالة, وكانت هذه الرسالة هي الردّ عليها.

وما نذهب إليه أن غموض مكان إقامة الكاتب واتِّصافه بالبعد في رسالتيه موضع الدراسة شيء معتاد عندما تصدران من شخص هارب؛ إذ يجب على الهارب من الملاحقة الحفاظ على سرِّية مكانه, وهو ما يؤكِّد لدينا أنَّ رسالته الأولى كُتِبت أثناء هروبه من العباسيين, وتقترب تاريخيا من رسالته الثانية التي أُجمِع على أنها آخر ما كتب عبد الحميد.

[1] انظر دلالة صيغة اسم الفاعل على التجدد: عبد اللطيف الخطيب، (2003)، 447.

3- شقاء بدني ونفسي

من أوجه التشابه بين الرسالتين التشابه في الجوّ النفسي من الكآبة والضيق وما يعكس شقاء عبد الحميد من الناحية النفسية, ويعكس هذا الشقاء النفسي الحنين إلى الوطن ومن فيه من أقارب وأصحاب.

ففي رسالته الأولى يصوّر لنا همومه وكآبته في قوله: "**إذ الضيعة لمن اغترب, والغربة لمن اشتملت عليه الهموم, وتشعَّبته الرغبة, ففارق الأحبَّة, واستخلف الغربة**" (إحسان عباس، 1988)، 203).

ويصوّر شقاءه البدني من السفر والتنقل في قوله: "**وكادح الأسفار وأتعب البدن, وأقلق الشخص, ونابذ الدعة, واعتاض النصب**" (إحسان عباس، (1988)، 203).

وقوله: "**تُوجِف بنا مطايا الشقاء, نباكر دلجها بغمِّ النصب, ومبهظ التعب, واحتمال الجفوة, وذلِّ التجهُّم, فالأبدان خاشعة لطول الدأب, تتوقَّل في وعور المسالك**" (إحسان عباس، (1988)، 203).

ويرجع هذا الشقاء البدني في هذه الرسالة إلى كثرة السفر والتنقُّل المستمرّ: (عقد الرحال وحلِّها), دون راحة مع وعورة الطرق: (وعور المسالك), وصعود الجبال: (ذرى قلل الجبال), واجتياز الصحراء: (مهاوي الفيافي).

أما الشقاء النفسي فيرجع إلى تنكُّر المضيفين لهم: (جوار المتنكِّرين, وحشة من نصير إليه, تجبُّر من نتعامل), والإحساس بالخطر وانسحاب الأمن: (هول تلك المخاوف, نوائب الدهور, بتحريك المضطرب), والحنين إلى الأهل: (استعجمت علينا أخبار الأحباب), ومن الفقر والحاجة: (أصبنا من دنياهم حطاما, لعلَّ ذلك القليل أن تستنفده نوائب الدهور).

وقد ظهر هذا الشقاء البدني والنفسي على عبد الحميد من: (الأبدان خاشعة, النفوس بأمور شتى معنية), ويجسِّدهما معا في لون الوجه لأخيه: (رقَّة وجهك ناضر لونها), الذي يستدعي بالطبع المقابل له في الحال, وهو عبد الحميد, ويعكس عليه الشحوب.

وفي رسالته الثانية يظهر الشقاء البدني من فعل الدنيا به بتقلُّبها عليه: (أعقبت بالراحة نصبا, سبيل من لا أوبة له).

والشقاء النفسي الذي تتجلَّى أسبابه في الشعور بالخوف والخطر: (وبالأمن خوفا, بالحياة موتا, آخر العهد بكم وبنا), وإعراض الدنيا وتنكُّرها له: (شمست منا نافرة, أعرضت عنا متنكِّرة), والحنين إلى الوطن والشعور بفقده من فيه: (فمزَّقتنا عن الأوطان, قطَّعتنا عن الأخوان, منفيِّين عن الأولياء, مقطوعين عن الأحبَّاء, صبابة ووجدا), والفقر والحاجة: (بالجدَّة حاجة, بالسرَّاء ضرَّاء), ويضاف إليهما اليأس: (يائسين), والشؤم: (دارنا نازحة, طيرنا بارحة).

وهذا التشاؤم واليأس من الحياة لا يؤكِّد لنا إنشاء الرسالتين أثناء الهروب من العباسيين فحسب, بل ويبرز لنا أسبقية الرسالة الأولى تاريخيا على الرسالة الثانية, بمعنى أن الأولى التي أرسلها لأخيه كانت في بدء الهروب, والثانية كانت عند اقتراب نهايته, فبدء الهروب قد يسيطر على الكاتب الحزن والضيق والكآبة, ولكن ليس الشؤم واليأس؛ لأنَّ كثرة التنقُّل والحركة الدائبة لا يجتمعان مع هذا اليأس من الحياة والتشاؤم, ولهذا وجدنا تكرار لفظ الأمل في الرسالة الأولى: (حبال الأمل, حالفك الأمل), ومع تكرار لفظ الأمل وجدنا عبد الحميد متمسِّكا بالأمل أيضا في العودة إلى الأهل, فقد صرَّح بذلك في قوله: "**فإن نلنا منهم حظًّا, وأصبنا من دنياهم حطاما؛ نكَّره طول السفر الممل لنا من عقد الرحال وحلِّها إلى أوان الأوبة إلى الأهل**" (إحسان عباس، (1988)، 204).

أما في رسالته الثانية فيرفض العودة مذلولا ويسيطر عليه الشؤم واليأس في الحياة من قوله: "**وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم؛ نرجع إليكم بذلِّ الإسار والصغار, والذلُّ شرُّ دار والأم جار, يائسين من روح الطمع, وفسحة الرجاء**" (إحسان عباس، (1988)، 279).

ونتيجة لهذا اليأس يحضِّر الكاتب نفسه للموت بقوله: "**فإن تتم البلية إلى أقصى مدَّتها؛ يكن آخر العهد بكم وبنا**" (إحسان عباس، (1988)، 279).

وهذا يؤكِّد ما ذهبنا إليه من أن الرسالتين كُتِبتا أثناء هروب الكاتب, وأسبقية الرسالة الأولى المجهولة التاريخ والمشكَّك في صحَّة نسبتها إلى الكاتب على الرسالة الثانية التي تعدُّ آخر رسائله, وذلك بفترة زمنية وجيزة.

4- فرد في جماعة (تقوية النفس)

من أوجه التشابه بين الرسالتين ما لاحظناه من حركة الضمائر فيهما, ففي حين بقي المتلقِّي بصيغة الخطاب في الرسالة الأولى, وبقيت الدنيا بصيغة الغائب في الرسالة الثانية, وهي الصيغ المعتادة لأخيه والدنيا في الرسالتين؛ وجدنا حركة في الضمائر العائدة على عبد الحميد في الرسالتين, فيبدأ بصيغة الغائب في الرسالة الأولى بقوله: "**إذ الضيعة لمن اغترب, والغربة لمن اشتملت عليه الهموم, وكادح الأسفار, وأتعب البدن, وأقلق الشخص, ونابذ الدعة, واعتاض النصب**" (إحسان عباس، (1988)، 203).

ثم يلتفت إلى جمع المتكلِّمين بقوله: "**ونحن في تعب الدنيا توجف بنا مطايا الشقاء, نباكر دلجها بغم النصب**" (إحسان عباس، (1988)، 203).

ويكمل بتلك الصيغة بقية رسالته.

وفي رسالته الثانية يبدأ أيضا بصيغة الغائب بقوله: "**ومن قرصته بأظفارها, وعضَّته بأنيابها, وتوطَّأته بثقلها؛ قلاها نافرا عنها, وذمَّها ساخطا عليها, وشكاها مستزيدا منها**" (إحسان عباس، (1988)، 279).

ثم يلتفت إلى جمع المتكلِّمين أيضا بقوله: "**ثم شمست منا نافرة, وأعرضت عنا متنكِّرة, ورمحتنا جامحة**" (إحسان عباس، (1988)، 279).

ويكمل بتلك الصيغة أيضا بقية رسالته.

وليس هذا موضع حديثنا- إذ سبقت الإشارة إليه- ولكن ما يهمنا هنا أن ثمَّة التفات آخر في الرسالتين, ففي بدء الرسالة الأولى يظهر عبد الحميد بصيغة المتكلِّم المفرد المعتادة له في قوله: "**وقد أصبحت عندي ذا غبطة باقتصارك على القليل**" (إحسان عباس، (1988)، 203).

وهو الالتفات الوحيد بهذه الكيفية في هذه الرسالة, وفي انتهائها يقصد الكاتب المعنى ذاته, ولكن بصيغة المتكلِّمين مثل بقية الرسالة بقوله: "**وأنك عندنا مغبوط إذ نحن على أنفسنا أهل إزراء**" (إحسان عباس، (1988)، 204).

وفي الرسالة الثانية يظهر عبد الحميد في موضع واحد منها بصيغة المتكلِّم المفرد أيضا كما فعل في رسالته الأولى بقوله: "**وكتبت إليكم والأيام تزيدنا منكم بعدا**" (إحسان عباس، (1988)، 279).

وبهذا الالتفات بكيفيته هذه وروده مرَّة واحدة في كلِّ رسالة من الرسالتين, نخرج بارتفاع أوجه المشابهة بين الرسالتين من ناحية, ومن ناحية أخرى نشعر بأن هذا الالتفات لا يُقصَد من ورائه إلا رفض الكاتب لفكرة أن يكون وحيدا في غربته فيستحضر عددا معه يشاركونه الغربة بآلامها وكآبتها وشقائها البدني والنفسي, ويشعرون معه بالخطر والمذلَّة؛ لتكون هذه المشاركة تسلية لنفس عبد الحميد بأن هذه الظروف ليست له وحده, بل يشاركه فيها آخرون, كما شاركه الراحة والسعادة في ظلِّ الوطن آخرون.

وقد يكون هذا الاستحضار للآخرين بجانب تسلية النفس طردا لجزء من الخطر وطمأنة النفس بوجود من يحميه ويساعده باعتباره فردا في جماعة.

5- غربة بلا عودة (أدلة الهروب)

بعدما رصدنا أوجه التشابه بين الرسالتين لإثبات أن الرسالة الأولى كُتِبت أثناء هروب عبد الحميد من العباسيين, ولا يوجد خلاف على كتابة الرسالة الثانية أثناء الهروب؛ وجب علينا أن نسلِّط

الضوء على بعض الأدلَّة التي تنحى بالرسالة الأولى عن الغربة التي تعقبها عودة للوطن إلى غربة بلا عودة, أو بمعنى آخر أدلَّة الهروب.

أ- **ندم مضمر:**

"فإن من صغرت رغبته, وقصرت حاجته؛ أراح بدنه" (إحسان عباس، (1988)، 203).

يعكس هذا البدء ندما مضمرا من قِبل عبد الحميد؛ لأنه سعى أو ترك نفسه لتولِّي المناصب في الدولة فانتهى به الأمر إلى ملاحقة العباسيين له, ولو كان غير مشتغل بالسياسة في الدولة لاختلف مصيره, فالكاتب لم تصغر رغبته وطمعه في الدنيا, ولم تقصر حاجاته ومطالبه منها؛ ولذلك فإنَّه في شقاء وليس راحة, وذكر الكاتب لهذا يعكس بالطبع تأنيبه لنفسه لأنها لم ترض بالقليل, مما يوحي هذا الذكر بالندم المسيطر على عبد الحميد. وهذا الندم المضمر نستوحيه من دلالة: (من) على الغموض[1], واستعمال ضمير الغائب الذي اختفى الكاتب وراءه مثل الاختفاء من العباسيين.

ب- سوء الاستقبال:

"حتى تخيِّم بنا الأسفار على حلول كلّ دار بكربة الغربة, وخشونة الجفوة, وجوار المتنكِّرين, ووحشة من نصير إليه, مع تجبُّر من نعامل باستطالته علينا" (إحسان عباس، (1988)، 204).

من المعلوم أن عبد الحميد لم يغترب وحده, بل كان مرافقا لمروان في حروبه عندما كان واليا على أرمينية, ولا تستقيم هذه الرسالة مع هذه الظروف؛ إذ مصاحبته لمروان- وهو والٍ- تستدعي احتفاء المضيفين بمروان ومعه عبد الحميد, وهذا الاحتفاء لم يحدث باعتراف عبد الحميد الصريح بخشونة المضيفين وجفوتهم وتنكُّرهم لهم, أو في أبسط الأحوال تجبُّر المضيفين وتعبيرهم عن استطالة الضيافة.

[1] ذلك لاختياره الموصول العام دون الموصول المختص، انظر ذلك: عباس حسن، (1984)، 342/1.

ولكن هذه المعاملة من المضيفين تستقيم مع هارب فقد عزّته وسلطانه, أو لخوف المضيفين من العباسيين إذا علموا بإيوائهم لهاربين منهم, فلا يسع المضيفين في هذه الظروف إلا التجنُّب والتعبير عن عدم الرغبة في استضافتهم, أو اختصار أيام الاستضافة.

ج- رحلة بلا مدد:

"فإن نلنا منهم حظًّا, وأصبنا من دنياهم حطاما..., ثمَّ لعلَّ ذلك القليل أن تستنفده نوائب الدهور" (إحسان عباس، (1988)، 204).

عمل عبد الحميد حسب المصادر **"ما يقارب سبعة وعشرين عاما يكتب بصفته موظفا في الدولة"** (إحسان عباس، (1988)، 63).

ولم تثبت له رسالة قبل هشام بن عبد الملك, ولهذا يمكننا القول إن هذه الغربة لو كانت من أجل الدولة لكان المدد والإنفاق من الدولة بمعنى تجهيزه وإمداده بكل ما يلزم للقيام بمهمته, وهو ما ينفيه الشاهدان السابقان بدلالتهما على الفقر والحاجة وعدم وجود المدد, وهذا يجعلنا نتيقَّن من صدور هذه الرسالة أثناء هروبه, إذ لا يعرف أحد من أنصار مروان مكانه- لغموض المكان للحفاظ على السرية من العباسيين- ليُمدَّه بالعون أو الاحتياجات الضرورية, ولانقطاع الأخبار عنهم تماما من قوله: **"استعجمت علينا أخبار الأحباب"** (إحسان عباس، (1988)، 204).

د- فقد الأحباب:

"فقدنا الأقارب والأصحاب" (إحسان عباس، (1988)، 204).

إنَّ الدلالة المعجمية للفعل الماضي المحقَّق الحدوث على ضياع الأقارب والأصحاب تؤكِّد لنا أن هذه الغربة غير محدَّدة الزمن, بل هي غربة دائمة؛ إذ المغترب لا يفقد أقاربه, بل يبتعد عنهم لفترة, ولكن الظاهر من دلالة الفقد تثبت لدينا فكرة الغربة بلا عودة, أي الهروب؛ لأنه لن يرى أقاربه وأحبابه ثانية لعدم الرجوع إلى الوطن في المستقبل, هذا وقد يعكس الشاهد السابق الحقيقة الفعلية من فقد الكاتب لأقاربه وأصحابه؛ إذ من الممكن أن يكون العباسيون قد قتلوهم ضمن المعركة الأخيرة في فلسطين, أو حتى بعدها لتصفية الأمويين ومن له علاقة بهم.

هـ- التسليم بالقضاء:

"يبتلعه قضاء الحقوق بالتقديم قبل التدبير" (إحسان عباس، (1988)، 204).

لقد كنَّى الكاتب في غير موضع من رسائله عن الموت بقضاء الحق-كما هي الحال عند عديد من الكتَّاب-, وهو ما نظنُّه هنا أنه كناية عن الموت أيضا, وأن الكاتب كان يدرك مصيره بملاحقة العباسيين له مهما طال عليه الزمان, أو بعد به المكان, فالتفكير في المصير أنسب للهارب وليس للمغترب. ويؤكِّد ما نذهب إليه ما جاء بعد الكناية: (بالتقديم قبل التدبير), إذ لا يدري الكاتب بما قد يفاجئه قبل أن يدبِّر أمره أو توفير سبل الأمان من الموت إذا لحق به العباسيون.

و- دوافع السفر:

"ثم تستأنفه مفاوز الطلب بتحريك المضطرب, فإذا الأسفار قد تجدَّدت بتكاليف المئونات, موجفين إلى نائي المحلِّ في دار الذلَّة" (إحسان عباس، (1988)، 204).

إنَّ غموض الدافع الحقيقي لكثرة الأسفار أو حتى الاغتراب من سطح النصِّ يجعلنا نبحث عنه في البنية التحتية للنصِّ, أو بمعنى آخر كشف ما وراء السطور.

إنَّ دلالة: (تحريك المضطرب), على الدوام والاستمرار تقدِّم دافعا لكثرة الأسفار والحلِّ والترحال الدائمين في الرسالة, فالاضطراب الدائم ودوام تحرُّكه يعكس الخوف وانسحاب الأمان من ناحية, وتأتي كثرة الأسفار التي نستوحيها من صيغة الجمع, والدلالة المعجمية لفعل التجدُّد المؤكَّد بـ: (قد)[1], لتؤكِّد هذا الخوف, وعدم الشعور بالأمان من ناحية أخرى. ووجود الدافع للسفر المستمر ليس في رأينا إلا الخوف من الموت ووسيلته الهروب. ويعزِّز ذلك دلالة: (فإذا), التي تعمِّق من المفاجأة[2] التي تناسب الخائف بترك المكان لمكان آخر إذا اقترب العباسيون منه.

[1] انظر دلالة قد على التحقيق والتأكيد: ابن هشام الأنصاري، (2000)، 544/2.

[2] انظر دلالة إذا على المفاجأة: الهروي، (1993)، 202.

ودلالة الحال أيضا: (موجفين)- المصاحبة للسفر- على التجدُّد[1] مع تحديد المسافة: (إلى نائي المحل), تكشف لنا عن مواصفات كل مكان يقصده عبد الحميد, وأهم تلك الصفات أن يكون بعيدا عن سابقه ولا نرى في هذا البعد أي مصلحة لمغترب إلا إن كان هاربا من الموت.

ز- الشعور بالخطر:

"واستقرعت أبواب السلامة, وتمهَّدت وثارة الأمن, وتوسَّطت رباع العز, واستخفضت بذلك معاشك, فصار قليل ما أنت فيه كثيرا لمساعدة السلامة إياك" (إحسان عباس، 1988)، 204).

إن تكرار خلع صفات الأمن والسلامة على المتلقي بتكرار مادتهما اللغوية في غير موضع من رسالته, يكشف لنا عن مظهرين دلالين, أولهما: الإلحاح بالتكرار على أمن المتلقي وسلامته في ظل الوطن, وآخرهما: يستحضر بالطبع المقابل لهما من الخطر والخوف, ولقيام الرسالة على التقابل بين حالي الكاتب والمتلقي؛ فإننا نستطيع أن ننسب بسهولة الخوف والخطر لحال عبد الحميد, وهذا الشعور يقوّي لدينا فكرة الهروب وليس الاغتراب, إذ يمكن للمغترب أن يعود لوطنه خاصة إذا شعر بالخطر.

المصادر والمراجع

إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية, مكتبة الانجلو المصرية, القاهرة, 1999م.

دلالة الألفاظ, مكتبة الانجلو المصرية, القاهرة, 2004م.

ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق عبد اللطيف الخطيب، السلسلة التراثية، الكويت، 2000م.

إحسان عباس, عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء, دار الشروق, عمان, 1988م.

[1] انظر دلالة الحال على التجدد: عباس حسن، (1984)، 367/2.

أحمد إسماعيل حسن علي، قراءة بلاغية في شعر ابن حزم الأندلسي، مجلة الديانة، المجلد الرابع، 2014.

الثعالبي, يتيمة الدهر, مطبعة الصاوي, مصر, 1937م.

الجهشياري, الوزراء والكتاب, تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي, مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي, مصر, الطبعة الأولى, 1938م.

الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، مصر، 1957م.

صلاح فضل، علم الأسلوب- مبادئه وإجراءاته, دار الشروق, القاهرة, 1998م.

محمد الصالح الضالع، الأسلوبية الصوتية، دار غريب، القاهرة، مصر، 2002م.

عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، 1984م.

عبد اللطيف محمد الخطيب، المستقصي في علم التصريف، دار العروبة، الكويت، 2003م.

عبد المتعال الصعيدي، بُغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 1999م.

عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن الكريم، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.

كريم فاروق أحمد عبد الدايم، نثر عبد الحميد الكاتب- دراسة أسلوبية، مخطوط بكلية الآداب جامعة عين شمس، القاهرة، 2008م.

محمد عبد المطلب، بناء الأسلوب في شعر الحداثة- التكوين البديعي, دار المعارف, القاهرة, الطبعة الثانية, 1995م.

الهَرَوي، الأزهيَة في علم الحروف، تحقيق عبد المعين الملوحي، مَجمَع اللغة العربية، دمشق، 1993م.

Kaynakça

Abbas Hasan, *en-Nahvu'l-Vâfî,* Dâru'l-Me'ârif, Kâhire, 1984.

Abdullatîf Muhammed el-Hâtib, *el-Mustaksî fî İlmi't-Tasrîf*, Dâru'l-Urûba, Kuveyt, 2003.

Abdulmuteal es-Sağıdî, *Buğyetu'l-izâh li Telhîsi'l-Miftâh fî 'Ulûmi'l-Belağa,* Mektebetu'l-Âdab, Kâhire, Mısır, 1999.

Ahmed İsmaîl Hasan Ali, *"Kırâatun Belağıyyetun fî Şi'ri İbn Hazm el-Endulûsî"*, Diyanet İlmi Dergi, Cilt 50, Sayı 04, Aralık 2014.

el-Cihşiyarî, *el-Vuzerâu ve'l-Küttâb*, Tahkîk Abdullah İsmaîl es-Sâvî, Matbâa'atu Hanefî, Mısır, 1938.

el-Harravî, *el-Ezhiyetu fî 'İlmi'l-Hurûf,* Tahkîk Abdulmu'iîn el-Meluhî, Mecmeu'l-Luğati'l-Arabî, Dımeşk, 1993.

İbn Hişâm el-Ensârî, *Muğni'l-Lebib 'an Kutubi'l-E'ârib*, Tahkîk Abdullatif el-Hatîb, es-Silsiletu't-Turâsî, Kuveyt, 2000.

İbrahim Enis, *el-Asvâtu'l-Luğavî,* el-Ancelu el-Mısrî, Kâhire, 1999.

İbrahim Enis, *Delâletu'l-Elfâz,* el-Ancelu el-Mısrî, Kâhire, 2004.

'İffet eş-Şerkavî, *Belâğatu'l-'Atf fi'l-Kur'âni'l-Kerîm, Dâru'n-Nahdati'l-Arabî,* Beyrût, 1981.

İhsan 'Abbas, *Abdulhamîdi'l-Kâtib ve ma Tebakka min Resâilihi ve Resâili Sâlim Ebi'l-'Alâ,* Dâru'ş-Şurûk, 'Amman, 1988.

Muhammed Abdulmuttalib, *Binâu'l-Üslûb fi'ş-Şi'ri'l-Hadase, et-Tekvînu'l-Bedî'î,* Dârul Ma'ârif, Kâhire, 1995.

Muhammed es-Sâlih ed-Dâli', *el-Uslûbiyyetu's-Savtî,* Dâru Garîb, Kâhire, Mısır, 2002.

Karim Faruk Ahmed Abdü'd-Daim, *Nesru Abdulhamidi'l-Kâtib Dirâsetu'n Üslûbiyye*, Mahtût bi Külliyyeti'l-Âdâb Câmi'atü'l-Aynü'ş-Şems, Kâhire, 2008.

Salâh Fadl, *'İlmu'l-Üslûb*, *Mebâdiuhu ve İcrâatuhu*, Dâru'ş-şurûk, Kâhire, 1998.

es-Saâlibî, *Yetîmetu'd-Dehr*, Matbâ'atu's-Sâvî, Mısır, 1937.

ez-Zerkaşî, *el-Burhân fî 'Ulûmi'l-Kur'ân,* Tahkîk Ebu'l-Fadl İbrâhîm, Dâru't-Turâs, Kâhire, Mısır, 1957.